الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. أما بعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتاب الكبائر :

بابٌ ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه

وقول الله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] . **وروى الإمام أحمد عن أبي داود عن شعبة عن قيس بن مسلم أنه سمع طارق بن شهاب يحدِّث عن عبد الله يقول: «إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيلقى الرجل وله إليه حاجة فيقول له: أنت كيت وكيت، يثني عليه لعله أن يقضي من حاجته شيئا، فيسخط الله عليه، فيرجع وما معه من دينه شيء».**

****

قال رحمه الله تعالى : «**بابٌ ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه**» ؛ التملق : هو أن يُذِل الإنسان نفسه لإنسان آخر لحاجةٍ عنده لدى ذلك الإنسان ؛ فيتملق إلى ذلك الإنسان بمدحه وإطرائه والثناء عليه لا لشيء إلا ليحصّل من طريقه تلك الحاجة، مع أن هذا الإنسان الآخر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا فضلاً عن أن يملك ذلك لغيره، والذي يملك النفع والضرَّ والعطاء والمنع والخفض والرفع هو ربّ العالمين سبحانه وتعالى ، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] ، فهذا الشخص الذي يتملق إليه ويُذل نفسه عنده ويمدحه ويطريه إن لم يكن الله عز وجل قسم له عطاءً لا يمكن أن ينال من خلال هذا الشخص، فالعطاء بيده الله سبحانه وتعالى وحده . ولهذا لا ينبغي أن يكون الذلّ والخضوع والتذلل والانكسار إلا للربّ العظيم سبحانه وتعالى، فالعبد يثني على ربه ويحمده ويمجده ويتذلل بين يديه ويسأله ويبذل الأسباب التي شرعها الله سبحانه وتعالى لنيل المصالح وحاجات العبد ، أما أن يذل نفسه للمخلوقين من رؤساء أو أثرياء أو غير ذلك ويتذلل ويتملق فهذا كله مما لا يليق بالمسلم ولا يليق بمكانته ولا يليق بشرفه وفضله ومنزلته.

قال: «**بابٌ ما جاء في التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه**» ؛ مدح الإنسان بما ليس فيه هو من التملق، لأن التملق نوع من الاستعطاف للإنسان والاستجداء مما عنده، فيُطريه ويمدحه ويثني عليه، كأن يكون مثلاً يعرفه بخيلاً وأنه لا ينفق، فيأتي إليه يقول: "أنا لا أعرف أكرم منك، وأنت الكريم، أنا تفكرت في الناس كلهم ما رأيت مثلك في الكرم" ويعطيه من هذا المدح حتى يحاول أن يستخرج منه شيئًا، "وأنا أعرف في فضلك وأخلاقك الكريمة

وتعاملاتك الطيبة، أنا عاشرت الناس كلهم ما رأيت مثلك في كرمك وفي خُلقك"، وهو يعرف في قرارة نفسه أنه ليس كذلك، لكنه يتذلل بهذه الطريقة ويتملق ويمدح الإنسان بما ليس فيه يريد أن يستخرج منه شيئًا، ثم ربما أن كل هذا التملق إذا انتهى يقول له: "ما عندي شيء، أوضاعي المادية الآن ما تسمح"، أو أشياء من هذا القبيل. فهذه من الصفات الذميمة؛ التملق ومدح الإنسان بما ليس فيه.

قال: **وقول الله تعالى ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾** [الحج: ٣٠] ؛ والزور: الباطل ، وهذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى باجتناب كل باطل ، ومن الباطل الذي يدخل في عموم قوله ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ : مدح الإنسان بما ليس فيه، وإذا كان مدح الإنسان بما فيه يُذم إذا كان لغير مصلحة شرعية فكيف بمدح الإنسان بما ليس فيه لمصلحة دنيوية؟!

قال: **وروى الإمام أحمد عن أبي داود عن شعبة عن قيس بن مسلم أنه سمع طارق بن شهاب يحدِّث عن عبد الله** أي ابن مسعود **يقول:** «**إن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه، فيلقى الرجل وله إليه حاجة فيقول له: أنت كيت وكيت**» ؛ أي يمدحه ويثني عليه بما ليس فيه، أنت الكريم وأنت الكذا، إلى آخره «**يثني عليه لعله أن يقضي من حاجته شيئا، فيسخط الله عليه، فيرجع وما معه من دينه شيء**» ، وربما أيضًا وما معه من دنياه شيء ، فلا يحصّل دنيا ولا يسْلم له دين، ربما أنه بعد ما يمدحه ويثني عليه إلى آخره يقول: ما عندي شيء، تمدح أو لا تمدح ما عندي ، فيرجع وليس معه من دنياه شيء، وأيضًا سخط الله ويرجع وليس معه من دينه شيء.

جاء في بعض الروايات: «فيلقى الرجل لا يملك له ولا لنفسه ضرًا ولا نفعًا، فيقسم له بالله: إنك لذيت وذيت» أنت فلان أنت كذا أنت كذا، يقسم له بالله ؛ «فيرجع ما خلّى من حاجته بشيء» يعني ما حصّل من حاجته شيء «وليس معه من دينه شيء» ؛ هذه مصيبة ، وكما قدمت ينبغي للمسلم أن يكون عزيز النفس بدينه، وأن يكون افتقاره لله وحده سبحانه وتعالى، ويبذل الأسباب المشروعة ، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣] ، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] .

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ ما جاء في النهي عن كون الإنسان مدّاحًا

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ الآية [النساء: ٤٩] .

****

قال: «**بابٌ ما جاء في النهي عن كون الإنسان مدّاحًا**» أي: مدّاحًا لمن يلقاه من الناس . والغالب أن كثير المدح لمن يلقى من الناس لا يسْلم من الكذب، فإذا كان يُكثر من المدح سيمدح في بعض مدحه بما هو وصفٌ للممدوح، ثم مع كثرة المدح واستمرائه للإكثار من المدح سيمدح الممدوح بما ليس فيه ، فكثرة المدح مذموم ؛ مذمومٌ لما يفضي إليه من الكذب ومدح الإنسان بما ليسه فيه، ومذمومٌ من جهة أنه لا يؤمَن على الممدوح أن يكون كثرة المدح له تفضي به إلى العجب والغرور ؛ ولهذا جاءت الشريعة بالنهي عن ذلك ، كما سيأتي في الأحاديث التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى.

ومدح النفس أو مدح الآخرين نوع من التزكية، والله تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[النساء: ٤٩] ، وهذا توبيخ من ربّ العالمين جلّ في علاه للذين يزكّون أنفسهم من اليهود والنصارى، وسياق الآية في هؤلاء، وهي تتناول بعمومها كلَّ من يزكي نفسه ويمدح نفسه بما ليس فيه، وكذلك من يزكي الآخرين ويمدح الآخرين بما ليس فيهم، لأن قوله: ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ﴾ يشمل تزكية الإنسان لنفسه، وأيضًا تزكيته لغيره، مثل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩] ، فهذه الآية فيها الذمّ لمن كان مدّاحًا، يزكي نفسه بمدحها وإطرائها والثناء على نفسه، أو يزكي بعض الناس بمدحه وإطرائه والثناء عليه. وفي هذه الآية أن هذا كان من أوصاف اليهود، وهذا السياق نزل في ذمّ هؤلاء، وهو بعمومه يتناول كلَّ من نحى نحوهم وسار في مسلكهم .

قال: ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾أي يزكي من يشاء بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة، الله عزّ وجلّ يزكي من يشاء . وهذا فيه أن زكاء القلب وصلاح العمل منّة من الله سبحانه وتعالى، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾[النور: ٢١] فالأمر بيده سبحانه، ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الحجرات: ١٧] ، قال جلّ وعلا: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحجرات:٧-٨] .

قال رحمه الله تعالى :

٥٩ – ولمسلم عن المقداد رضي الله عنه أنّ رجلاً جعل يمدح عثمان ، فجثى المقداد على ركبتيه فجعل يحثو في وجهه التراب، فقال له عثمان رضي الله عنه : ما شأنك؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا رأيتم المدَّاحين فاحثوا في وجههم التراب)) .

****

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث وهو في صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ((**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجههم التراب**)) ؛ وذلك لأن المداحين في الغالب يكثر فيهم الكذب في إطرائهم وثنائهم على من يمدحونه، فيترتب على ذلك إصابة الممدوح بالغرور والعجب، عندما يسمع هذا وذاك يمدحونه، "أنت وأنت، والله إنك لذيت وذيت" مثل ما تقدم ، يطريه ويمدحه ويثني عليه، هذا يجعله يصاب بالغرور والعجب بالنفس، وهذه مهلَكة للإنسان، ولهذا جاءت الشريعة بالنهي عن ذلك.

قال رحمه الله تعالى :

٦٠ – وفي المسند عن معاوية رضي الله عنه مرفوعًا: ((إياكم والمدح، فإنه الذبح)).

****

قال: **وفي المسند عن معاوية رضي الله عنه مرفوعًا** -أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ورضي الله عن معاوية وعن الصحابة أجمعين- قال : ((**إياكم والمدح**)) أي احذروا المدح، احذروا التمادح وأن يمدح بعضكم بعضًا، وأن يكون هذا ديدن الناس في لقاءاتهم، لأن هذا مثل ما تقدم مفضٍ إلى هلكة الإنسان، مفضٍ لهلكة المادح من جهة أن يبالغ ويكذب؛ وهذا هلاكٌ له، ومن جهة الممدوح أنه قد يصاب بالكبر والعجب والغرور ونحو ذلك.

وقوله: ((**فإنه الذبح**)) أي فإنه الذبح للممدوح، وهو ذبحٌ بغير سكين، ((فإنه الذبح)) لأن الممدوح يهلكه المدح، عندما يثنى عليه ويطرى يعجب بنفسه ويغتر وهذا هلاكٌ له وذبحٌ له.

والإنسان العاقل لا يفرح بمدح الناس له بما ليس فيه، بل كان بعض السلف إذا مُدح وقع في نفسه حياء من ربّه أن يُذكر عند الناس بما يعلم ربّه سبحانه وتعالى منه أنه ليس فيه ، فيستحي من ربه سبحانه وتعالى، ولهذا قيل: «الجاهل من ترك يقينَ ما عنده لظنِّ ما عند الناس»، مدح الناس له في الغالب بالظنّ، يرون بعض الظاهر الطيب ويبالغون، حتى إن بعضهم يبالغ في أوصاف تتعلق بالقلوب، ولا يجعل حتى "نحسبه من أهل الإخلاص، ونحسبه من أهل الصدق" ، لا ، بعضهم يقول: "والله إن هذا رجل مخلص، وهذا رجل والله صادق، وهذا رجل والله قلبه مليء بالإيمان ، وهذا وهذا" فإذا سمع هذه المدائح هذه كلها مدحٌ له بالظنّ، وفي الغالب ظنٌّ خاطئ، وهو يعلم من نفسه يقينًا أن هذه أوصافًا ليست فيه، ومع ذلك الجاهل يفرح بهذا المدح ؛ مدح الناس له بما هو متيقن أن

هذه الأوصاف ليست فيه، ويفرح! على ماذا يفرح؟! بينما الواجب أن يحزن، يقول: هكذا يُظن بي من الخير وأنا لست كذلك! فيبدأ يجاهد نفسه على إصلاح حاله وإصلاح نفسه.

فالشاهد أن المدح فيه هلاك للإنسان؛ هلاك للمادح، وهلاك للمدوح ، ولا يستثنى من ذلك إلا إذا كان المدح فيه مصلحة شرعية، ويؤمَن على الممدوح المضرة. مثلاً: في قضيةٍ ما الناس يستفتون فيقال: هذا الرجل -ويشير إليه- رجل من أهل العلم ومن أهل الفقه وهو عريق في العلم، ويذكر ما يعلم من أوصافه حتى يطمئن الحاضر الذي لا يعرفه إليه فيستفتيه، أو مثلا رجل عنده أمانة ويريد أحدًا، فيقول له: اذهب إلى فلان، هذا رجل مجرَّب ومعروف بأمانته، فمثل هذا المدح الذي له مصلحة شرعية، ليس فقط هكذا لا مصلحة من وراءه، ويؤمَن على الممدوح أيضًا من المضرّة من هذا المدح فإنه يكون لا بأس به، يكون جائزًا.

قال رحمه الله تعالى :

بابٌ ما يمحق الكذبُ من البركة

٦١ – عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: ((البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما)).

****

قال: «**بابٌ ما يمحق الكذب من البركة**» ؛ يمحق البركة: أي يُذهبها ولا يُبقيها. والكذب ممحقة للبركة، والبركة: هي النماء، نماء المال وزيادته وبقاؤه وحُسن انتفاع صاحبه منه. فالكذب في البيع والشراء وتحصيل الأموال هذا ممحقة لبركة المال، نعم قد يكذب وبدل أن يربح مثلاً في السلعة التي معه مائة ريال، بالكذب مثلاً يأخذ مائتين ريال، لكن لا بركة فيها، ممحوقة البركة، فالكذب ممحقة للبركة، يعني المال الذي أُخذ وحُصّل بالكذب لا بركة فيه، والبركة: هي النماء والزيادة .

قال: عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه مرفوعًا: ((**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا**)) أي ما لم يتفرقا بأجسادهما من المجلس، أما إذا حصل التفرق فلا خيار ، وهذا خيار المجلس.

((**فإن صدقا وبيّنا**)) الصدق مطلوب من الطرفين البائع والمشتري، والبيان أيضًا مطلوب من الطرفين البائع والمشتري. فإذا اشتركا في الصدق، هذا الصدق في وصفه للسلعة، والآخر الصدق في وفائه بالثمن وعدم المغالطة فيه.

((**صدقا وبيّنا**)) أيضًا يبين البائع ما في السلعة مثلا من عيب أو شيء من هذا القبيل ولا يكتم، وأيضًا المشتري يبين قضية النقود هل هي حاضرة معه الآن أو ليست حاضرة أو نحو ذلك.

((**فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما**)) وهذا يفيد أن الصدق إذا انتفى انتفت البركة، أن البركة وجودها مرتبط بوجود الصدق والبيان ؛ قال : ((**فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما**)) .

قال رحمه الله تعالى :

باب مَن تحلَّم ولم يرَ شيئًا

٦٢ – روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: ((مَن تحلّم بحُلمٍ لم يرَه كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل)) .

****

قال: «**بابٌ مَن تحلَّم ولم يرَ شيئًا**» ؛ تحلَّم: أي ادّعى أنه رأى رؤيا ورأى حُلما، ادّعى ذلك وهو لم ير شيئًا، لكنه يدَّعي عند الناس أنه في منامه البارحة رأى كذا ورأى كذا إلى آخره.

والرؤيا سبحان الله – هذا الحديث الآتي عند المصنف فيه وعيد شديد – الرؤى أصبحت مداخل لتمرير كل باطل، حتى العقائد الفاسدة والبدع والخرافات كثير منها دخّلوها على العوام بالرؤى المزعومة .

مرة رأيت كتابًا من كتب الخرافة، ولما رأيته ما ظننت أن مسلمًا يقبل هذا الكتاب؛ كله خرافة، وأذكار محدثة، وطلاسم، وأشياء مبتدعة، وألفاظ أيضًا ركيكة، ما ظننت أن مسلم يرى هذا الكتاب يقبله، ولما وصلت إلى آخر الكتاب وإذا بالمؤلف يقول: "بعد أن فرغت من تأليف هذا الكتاب ترددت في نشره، وبقيت وقتًا طويلاً مترددًا في نشره، فجاءني النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال: لماذا هذا التردد؟ الناس بحاجة إلى هذا الكتاب، وحثني على نشره، وجاءني أبو بكر وجاءني عمر وجاءني فلان فيقول: ما وجدت إلا أنني مضطر إلى نشره" . العوام مساكين إذا رأوا هذه الرؤيا المزعومة ؛ النبي صلى الله عليه وسلم في المنام جاءه وأبو بكر وعمر وفلان إلى آخره كلهم يقولون له: لابد أن تنشر هذا الكتاب، يصبح مثل المتفق عليه، رواه البخاري ومسلم عند العوام!

فالرؤى المزعومة المكذوبة مرَّر أصحابها كثيرًا من الباطل، والشيطان يأتي إلى هؤلاء في المنام حتى يُضِلَّ بهم الناس عن دين الله وعن سواء السبيل، فمسألة الرؤى هذه باب خطير جدًا، ولهذا جاء فيها وعيد شديد، وأن الإنسان إذا يتحلم يدَّعي أنه رأى في المنام وهو لم ير شيئًا، وفي الحديث: ((لم يبق من النبوات إلا المبشرات)) ، الرؤيا هذه ليست هينة، أمرها ليس بالهين، أمرها عظيم ، فلما يدّعيها الإنسان كذبًا، وأنني رأيت في المنام كذا وكذا إلى آخره، إما مثلا بأشياء يريد أن يثني على نفسه ويمدح نفسه بها ويكون له شأن عند الناس، أو يغرّ بعض الناس بشيء، أو بعضهم يأتي برؤيا مكذوبة يستجدي بها من أحد الأشخاص، وتكون داخلة في التملق، من الأشياء التي يتملق بها عند الآخرين فيدّعي أنه رأى في المنام، فالرؤى هذه مدخل لكثير من الباطل.

أورد رحمه الله هذا الحديث عند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: ((**مَن تحلّم بحلمٍ لم يرَه**)) ؛ تحلّم: أي تكلف وادّعى أنه رأى في المنام كيت وكيت وهو لم ير شيئًا ، كذبًا.

((**كُلِّف**)) أي يوم القيامة ((**أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**)) هل يمكن للإنسان أن يعقد بين شعيرتين؟! معروف حبّ الشعير، لو يعطى الإنسان حبتين من الشعير ويقال له: اعقدهما هل يستطيع؟ اعمل منهما عقدة حبتين من الشعير !! فـ ((**كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**)) بمعنى أن عذابه مستمر، لأنه ما يستطيع أن يعقد بين شعيرتين، فيعذب ويستمر عذابه، لأن الشعيرتين لو استمر إلى ما شاء من الزمان لا يستطيع أن يعقد بينهما، فهذا فيه وعيد شديد، ويدل على أن هذا من الكبائر، لأن العقوبات هذه لا تكون إلا في الكبائر وعظائم الذنوب.

قال : ((**مَن تحلّم بحلمٍ لم يرَه كُلِّف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل**)) ؛ وهذا كما قدمتُ لمكانة الرؤيا ومنزلتها، وأن الرؤيا جزء من النبوة كما جاء في الحديث ((لم يبق من النبوة إلا المبشرات)) ، ثم بيَّن أن المبشرات هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له ، فإذا دخل هذه الكذب فأمرٌ جِدُّ خطير، ولهذا جاء الوعيد الشديد لمن فعل ذلك أو ادّعى ذلك.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.